ثقافتنا

فصلية
ثقافية
عامة

العدد الخامس - ٢٠٠٧-٢٠٠٨
تصدر عن دائرة العلاقات الثقافية - وزارة الثقافة

- سيميائية الفوتوغرافيا

- الغموض والتشكيل الدلالي في بنية الجملة العربية
- عولمة الأدب نظرة في تحولات القصيدة العربية
- التعددية الثقافية والموقف من الآخر

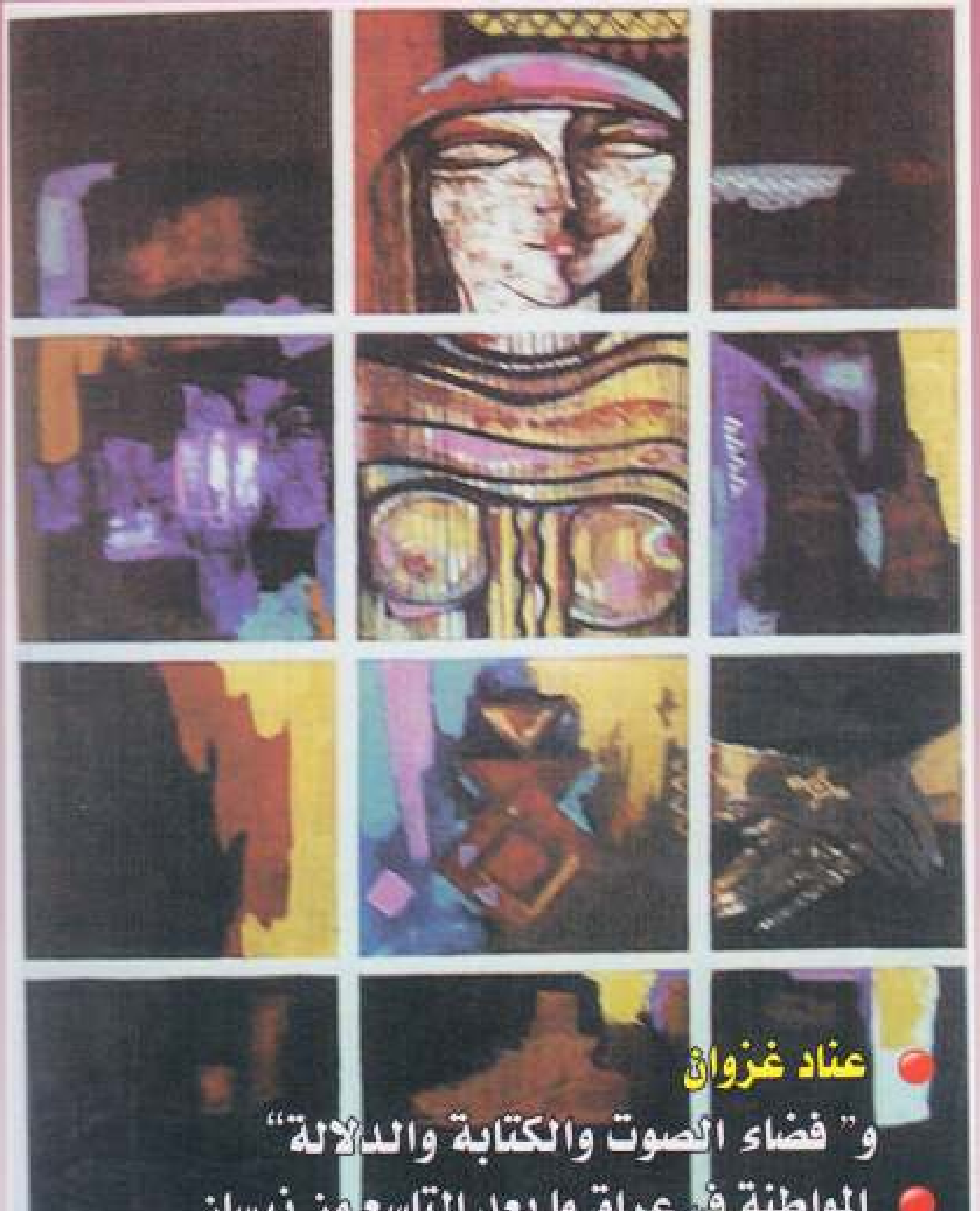

- عناد غزوان
و" فضاء الصوت والكتابة والدلالة"
- المواطنة في عراق ما بعد التاسع من نيسان

- سمة القلق في الشخصية العراقية
- لعنة الايدولوجيا - مبررات النشوء وآفاق التغيير
- العالم ما بعد العولمة

لسانيات

مفهوم الجملة

- من قضايا الجملة العربية — أ.د. نعمة رحيم العزاوي
- تكوين الجملة وامتدادها عند سيبويه — د. حسن عبد الغني الأسدي
- الغموض والتمثيل الدلالي في بنية الجملة العربية — ميثم رشيد حميد
- الجملة المحكية في العربية — م. وناو يوسف نصر الله

تكوين الجملة وامتدادها عند سيبويه في ضوء منهجه التفسيري للنحو

د. حسن عبد الغني الأسدي

سيبويه والمفسرون :

اتخذت دراسة النصوص اللغوية في التراث العربي الإسلامي في مرحلته المبكرة منحيين مثلا اهتمام طائفتين من العلماء لكل طائفة منهما قصد بعينه ؛ على الرغم من أن تلاقيهما على النص اللغوي ، جعل مواضع التلاقي أكثر من أن تحصى بل نجد منذ تلك المراحل المبكرة - تداخلاً واضحاً وفي مصادر الطائفتين ، استمر الى العصر الحديث ؛ على الرغم من ذلك فإن لكل طائفة منهما قصد بعينه من تلك الدراسة ، والطائفتان هما :

١- الطائفة الأولى (النحويون) : اعتنت هذه الطائفة بدراسة النصوص اللغوية للكشف عن طريقة العرب في كلامهم ، وذلك لأجل وضع القواعد لمستويات هذا الكلام ، والمستويات هي

١- الأصوات

٢- المفردات (الأبنية)

٣- التركيب (الجمل)

٤- دلالة المفردات (المعجمية) .

وتوجهت هذه الطائفة الى ما أثر عن العرب من كلامها المنثور والمنظوم ، وما سُمع من مفردات لغتهم ، ونطق أصواتهم .

٢- الطائفة الثانية (المفسرون) : كان توجه هذه الطائفة نحو النصوص الشرعية ، وتحديداً النص القرآني ، وذلك لا لأجل وضع القواعد لهذا النص بل تهدف للكشف عن قصد قائل النص المقدس ، حتى يمكن امتثال أوامره والعمل بها ..

من المفيد الإشارة الى أن تسمية الطائفتين بمصطلحي (النحويين والمفسرين) ، وردا في كتاب سيبويه في أكثر من موضع ، ما يعني إفادة النحويين من عمل المفسرين وإن عمل المفسرين يقترب من عمل النحويين في بعض جوانبه .

إن تتبع لفظة (تفسير) ومشتقاتها في كتاب سيبويه يتجه بنا الى القول بأن هذه اللفظة كانت قد اكتسبت دلالتها الاصطلاحية منذ زمن ، فمن بين (١٥٠) استعمالاً لهذه المادة ورد في الكتاب نجد أن ثلاثة منها جاء على لفظ (المفسرون) مرفوعاً ومنصوباً ومعنى ذلك إمكانية كون استعمال سيبويه هذه اللفظة يُلمح منه معناها الاصطلاحي الذي أصبح متداولاً لدى علماء المسلمين لغويين وغير لغويين ولهذا نرى الخليل في معجمه يقول : " التفسير وهو بيان وتفصيل للكتاب "(١) . ويعني ذلك استقرار اللفظة في جانبها الاصطلاحي ومن ههنا لا يبعد أن يكون سيبويه تأثر بعمل المفسرين فالنحو عنده تفسير لكلام العرب، لا من جهة دلالة هذا الكلام بل إن التفسير النحوي للكلام يعني الكشف عن مراحل تكوين الجملة وامتدادها وما يطرأ عليها من تحول كالتقديم والتأخير والحذف ونحو ذلك ، وتمثل هذا المعنى للز تفسير النحوي للكلام) في مواضع عدة وردت فيها لفظة (التفسير) ؛ فمن تلك المواضع ما ذكره سيبويه في قولهم ، لبيك وسعديك قوله : " وإنما حكمنا على تفسير لبيك وسعديك ، لنوضح به وجه نصبهما لأنهما ليسا بمنزلة سقياً وحوراً وما أشبه هذا ألا ترى أنك تقول للسائل عن تفسير سقياً وحمداً ، إنما هو : سقاك

الله سقياً ، وأحمد الله حمداً ، وتقول حمداً بدل من أحمد الله ، وسقياً بدل من سقاك الله .. "(٢). فالتفسير هو الكشف عن أصل الكلام ثم ما جرى من حذف الفعل وقيام المصدر مقامه ، في الدلالة على المراد ، وفي الحقيقة هو الكشف عن البنية الأساسية للكلام لأن هذا المسلك متبع سواء وجد لهذا المصدر فعل أم لم يوجد وعبر عنه سيبويه (ما لا يستعمل إظهاره) وهو ما فعله مع لبيك وسعديك فتفسيرهما (أليك لبا وأسعدك سعداً) وهذا الفعل مما لا يستعمل إظهاره(٣).

ويمكن أن نضيف على ذلك أن التفسير النحوي يعني بيان المعنى النحوي للكلمة الذي تكتسبه من خلال أدائها لوظيفة محددة في الجملة وهو ينسجم مع معناها المعجمي ومعناها الصرفي.

ومن هنا أستطيع القول بأنه إذا كان المفسرون قد توجهوا الى تفسير كلام الله الوارد في القرآن الكريم ، فإن النحويين - في رأي سيبويه - يسعون الى تفسير كلام العرب بما يؤدي الى الكشف عن أنماط جمله ووظائف أصنافه وعلاقات الربط بين مفرداته ، وما يعرض لها من أحوال تغيرها عن أصولها الأساسية . ولا يتم ذلك بمعزل عن الوظيفة الأهم للكلام وهي التخاطب ، بل إن مجالاً مهماً من مجالات التحليل النحوي للكلام يرى أن الكشف عن مقام التكلم وأحوال طرفي الخطاب (المتكلم والمخاطب) له أثره الفاعل في فهم أكثر لبنية الكلام وبنية الخطاب.

ولا يغيب أن جزءاً مما يتناوله النحويون هو (النص القرآني) فهو وإن لم يكن من كلام العرب ولكنه كما يقول سيبويه فيه : " فإنما أجري هذا على كلام العباد ، وبه أنزل القرآن "(٤).

وظيفة النحوي

يظهر مما تقدم أن وظيفة النحوي - كما يراها سيبويه - هي تفسير كلام العرب بأبعاده البنائية والدلالية المختلفة ، بشكله الظاهر الملفوظ وبأصله السابق المقدر ، ولقد اعتنى الخليل (رحمه الله) من قبل في وضع تصور واضح لما يقوم به النحوي ، فقد ذكر الزجاجي عن بعض شيوخه قوله : " سئل (يعني الخليل بن أحمد الفراهيدي) عن العلل التي يعتل بها في النحو ، فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها واعتللتُ أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه ، فإن أصبت العلة فهو الذي التمست ، وإن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء ؛ عجيبة النظم والأقسام ؛ وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها ، قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا ، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك ، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ؛ إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك ، فإنه سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت فيها "(٥).

فالخليل (رحمه الله) ينحو في كلامه المتقدم الى إظهار التعليل بوصفه وظيفة يمارسها النحوي لإدراكه مبدأ العلة والمعلول ؛ إدراكه أيضاً أن اللغة نسق محكم البناء ، وتكوّن هذا النسق خضع لحكمة ، والبحث عن هذه الحكمة وظيفة النحوي ، ويعد التعليل المظهر الأكثر بروزاً لهذه الوظيفة وسيمتد البحث عن الحكمة الى الأجيال اللاحقة من النحويين فنراه يظهر عند ابن جني بوصفه هدفاً رئيساً من أهداف التعليل في البحث اللغوي بعمومه.

من الملاحظ أن النص الخليلي قدم صورة مجملة لمنهجه في اللغة على أن سيبويه زودنا بأمثلة تطبيقية واسعة ، ولا يخفى أن سيبويه تبنى طريقة أستاذه في فهم وظيفة النحوي . وفي هذا الصدد بيّن سيبويه هذا المنحى في بعض كلامه فيما (يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف) وذلك كما في قولك : (الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر) فالفعل محذوف بعد (إن) الشرطية . قال سيبويه : " واعلم أنه ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل ؛ ولكنك تضمر بعدما أضمرت فيه العرب من الحروف والمواضع ، وتظهر ما أظهروا . وتجري هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من الكلام نفسه ، ومما هو في الكلام على ما أجروا . فليس كل حرف يحذف منه شيء ويثبت فيه (الى أن يقول) ، فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسّر "(٦).

فبعد الارتكاز على ما عرف عن العرب يتوجه الى بيان وظيفة النحوي بقوله : فقف ... ثم فسّر . فهو منهج وصفي تفسيري يسعى الى بيان وجه المستعمل من أنماط الكلام تعد تفسيراً نحوياً لتلك الأنماط . وعلى ما يبدو فقد اسهم ذلك في قيام منهج سيبويه النحوي على مجالات عدة للتحليل سنقف عليها لاحقاً.

نظرية العامل النحوي

يعد القول بالعامل النحوي جزءاً مهماً من المنهج التفسيري الذي تجلى في الكتاب . ولقد حرص سيبويه على ربط ظاهرة الإعراب ربطاً لا لبس فيه بما اصطلح عليه بـ(العامل) وذلك في البدايات الأولى لكتابه وتحديداً في الباب الثاني من أبواب مقدمته(٧) المجملة إذ قال : " وإنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ لأفرق بين ما يدخله ضربٌ من هذه الأربعة لما يُحدث فيه العامل وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه . وبين ما يُبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه العوامل ، التي لكل عامل منها ضرب من اللفظ في الحرف ، وذلك الحرف حرف الإعراب "(٨).

وقد تبيّن - من دراسة مستقلة لمفهوم العامل عند سيبويه(٩) - البون الشاسع بين مفهوم سيبويه للعامل ومفهوم النحويين الخالفين ، الذين تأثروا بآرائه تأثراً واضحاً إلا أنهم - فيما يبدو - لم يدركوا هذا المفهوم أو أنهم امتلكوا رؤى صاغوا العامل من خلالها مفهوماً آخر ؛ فقد اقتصروا على المظهر الشكلي لأثر العامل ، فلم يتعرضوا الى مفهوم العمل وآلية عمله ؛ على حين قدمت الدراسة ما بيّن أن مفهوم سيبويه للعامل مفهوم تكويني أو إنشائي للجملة ويتجلى ذلك في وضع تصور عن نشأة الجملة وترابط مفرداتها وقدرتها على الامتداد ، ويتم ذلك على وفق نسق محدد لا تصح مخالفته . إن العامل النحوي عند سيبويه هو المنشئ للجملة لقدرته على إيجاد مجالات للوظائف النحوية المتعددة بسبب ما يسببه من حاجة بنائية ودلالية للخطاب.

ولعل أبرز ما نقف عنده هنا لترجح هذا المفهوم السيبويهي للعامل هو اختياره هذه اللفظة (أعني : العامل) من دون غيرها كـ(الفاعل والقائم والوالي .. إلخ).

ويتضح هذا عندما نقف على المعنى اللغوي لهذه اللفظة ، إذ لا غرو في أن المعنى اللغوي له الأثر البارز في تحديد المعنى الاصطلاحي فالعامل في العين للخليل بن أحمد الفراهيدي " البناء يستعمل اللبن إذا بنى "(٩) وهذا المعنى يشير بوضوح الى دخوله في حقل البناء والإنشاء ، والأمر لا يقتصر على هذه اللفظة حسب بل إن مجموعة المصطلحات والتركيبات اللغوية تدخل في هذا الحقل وهي : (المُسند والمسند إليه ، والرفع ، والنصب ، والجر ، والبناء ، والمبني على الاسم ، والمبني

على الفعل ...) ولا يخفى تأثر سيبويه بفكر أستاذه الخليل الذي صور اللغة - كما في النص الذي تقدم ذكره - بأنها دار محكمة البناء . ومعنى هذا إرجاع فكرة العامل الى تصور بنائي للكلام . وكان نص الخليل واضحاً في تمثيل هذا التصور . ويبدو أن الخليل (رحمه الله) كان قد خطا الى تطبيق تصوره السابق عندما استعمل مصطلحي : (سند ومسند إليه) للدلالة على ركني الجملة الأساسيين فقال " الكلام سند ومسند كقولك: عبدالله رجل صالح، فعبدالله سند ، ورجل صالح مسند إليه .. "(١٠).

فاستعمل السند للمبتدأ واستعمل للخبر المسند والمسند إليه . وجاء هذا النص في سياق بيان المعنى اللغوي لمادة (سند) التي تدخل في الحقل البناء إذ قال في السند هو " ما ارتفع من الأرض في قبل جبل أو وادٍ وكل شيء أسندت إليه فهو سند "(١١).

"وملاحظة الدلالة المعجمية لمادة المصطلحين (أي سند) ثم عرضها في ضوء دلالتين رئيستين هما : الارتفاع والاعتماد . ولعل من المحتمل أن يكون لاشتقاقهما الدلالي جهة واحدة "(١٢) وهي تلك التي عبر عنها المعجميون بقول بعضهم " السند محركة : ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح "(١٤) وأيضاً قوله : " السند ما ارتفع من الأرض ، قِبل الجبل والوادي "(١٥) فمعنى الجبل يلبس بالارتفاع والاعتماد معاً(١٦).

ويضاف الى ذلك معنى الربط أو التعلق فالمسند هو الذي يُسند إليه " والمسند الدهر لأن الأشياء تُسند إليه ، تقول : كان كذا في زمان كذا "(١٧).

وإذا كان الأستاذ (أعني الخليل) قد استعمل (سند ومسند إليه) فإن التلميذ استعمل (المسند والمسند إليه) وهو استعمال أكثر إيحاء الى أثر المتكلم في صياغة الجملة فهو الفاعل الحقيقي للكلام الذي يقوم بوضع هذه اللفظة أولاً وفي (المسند) وصياغتها على وزن اسم المفعول من الرباعي (اسند) لتشير الى تأثر هذه اللفظة او تقبلها لفعل سابق هو فعل المتكلم الذي أنشأها في أول الكلام ؛ على حين أن (سند) لا يلمح منها هذه الدلالة فكأن سيبويه أراد ان يشير الى البناء الحكيم الذي أنشأ الدار .

ولا يغيب عنا أن فهم الجملة يتوقف في بعض مجالاته على تحديد هوية المتكلم ومقصده وبخاصة في إدراك المحتوى الدلالي للجملة(١٨).

ولما كان المتكلم من وجهة نظر نحوية صرفة أو لنقل من وجهة تركيبية لا وجود له في الكلام فانه سيجري إهماله .

أما اصطلاح (المسند إليه) فينبغي أن يفهم ضمن سياق (المسند والمسند إليه) أي (المسند الى السند) بإعادة الضمير في (إليه) على (المسند) الأولى . ويعني ذلك أن المسند إليه متأثر من جهة وجوده بالمسند الذي يسبقه فهو يرتكز عليه اعتماداً وارتفاعاً وهو متعلق به دلالة .

فكان المسند إليه معمولاً للمسند ومرفوعاً به وتابعاً له . والسند هو العامل النحوي الذي يرجع إليه المسند إليه .

تكوين الجملة وامتدادها :

إن المفهوم التكويني للعامل عند سيبويه يعتمد فيما يبدو على الكشف عن معنى العمل النحوي أو عن طبيعة هذا العمل الذي تنشأ به الجملة وتمتد. ويمكن في ضمن ذلك صياغة السؤال الآتي : كيف يتسنى لكلمة ما أن تكون عاملاً نحوياً ؟

فأقول : الملاحظ في تكوين الجمل أن وجود لفظة ما في الموقع الأول في الجملة ينتج عنه وجود موقع ثان في أقل تقدير ، ويصلح أن تشغله كلمة تناسب الكلمة التي شغلت الموقع الأول . ويعني ذلك أن وجود كلمة وموقع اقترن بوجود كلمة وموقع سابقين . وبهذا فإن ما كان ثانياً افتقر في وجوده لما كان سابقاً فالكلمة الأولى اتسمت بقدرة على تكوين محل تابع لها مع اختيار الكلمة المناسبة لتشغله . ويُعبَّر عن هذه القدرة بـ (إفراغ أو خلق مجالات نحوي) هي مجالات الوظائف النحوية التي تشغلها الأسماء في الجملة .

وعلى ذلك فالكلمة الأولى هي البناء الذي يبني الجملة فبوجودها تكون بقية المجالات وبحجمها ستتعدم وهذا الذي يؤدي الى القول بأن هذه الكلمة بموقعها هي العامل النحوي الذي مهمته تكوين وإنشاء الجملة من خلال قدرته على العمل أي إفراغ المجالات أو خلقها لتشغلها الأسماء لأداء وظائف دلالية تتعلق بالكلمة التي تشغل موقع العامل النحوي الأول في الجملة ومن هنا تكون الإجابة عن السؤال الآنف الذكر ؛ إذ كل كلمة : اسماً كانت أم فعلاً أم حرفاً تستطيع أن تسلك السلك السابق إذا دخلت في الموضع الأول . على أن المسألة تشتمل على شيء من التفصيل لتمس هنا محله ؛ علماً أن الدراسة التي أشرت إليها سابقاً عن المفهوم التكويني للعامل تكفلت بذلك(١٩).

إن العامل يُعد النواة المولدة للجملة وتختلف هذه المجالات باختلاف العامل الرئيس أو بقية العوامل غير الرئيسة في الجملة فإذا كان العامل فعلاً فهناك مجالات لمن أسند إليه هذا الفعل ولمن وقع عليه وظرفه الزماني والمكاني وكيفية وقوعه وسببه وغيرها أما إذا كان العامل اسماً فهناك مجالات للخبر وللظرفين ؛ إلا أن الملاحظ هنا كون الفعل أقوى العوامل لقدرته الواضحة على إنشاء مجالات عدة تفوق قدرة أي عامل آخر(٢٠).

وتجدر الإشارة هنا الى أن بعض المجالات لا تخلو منه الجملة للزومه كمجال الفاعل إذ بين الفعل (المسند) والفاعل (المسند إليه) ملازمة بنائية متأتية من الصيغة البنائية (الصرفية) للفعل وكان سيبويه قد أحوى بهذه الملازمة بقوله : " لأنك لا تلفظ بالفعل فارغاً "(٢١).

وتمتلك بعض المجالات ملازمة دلالية كمجالات المفاعيل (المفعول الأول والثاني والثالث) إذ يترتبط وجودها بالمفردة التي تشغل محل الفعل . وهو ما يعبر عنه بالتعدي الى المفعول أو الى المفعولين والى الثلاثة مفاعيل .

أما بقية المجالات فيتعلق ظهورها بمقتضيات الخطاب .

ومما يلازم الظهور مجال الخبر وهو ما عبّر عنه سيبويه من خلال قوله في باب المسند والمسند إليه :" لا يجد المتكلم منه بداً "(٢٢) وقال أيضاً : في الجملة : هذا عبدالله معروفاً :" وهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده، وهو عبدالله ولم يكن ليكون هذا كلاماً حتى يُبنى عليه أو يبنى على ما قبله فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند إليه "(٢٢).

والملازمة هنا ملازمة خطابية ونعني بالخطابية أن فائدة الكلام لا تتم إلا بظهور المجال الثاني إذ لا فائدة من نطق (زيد) مفردة بلا (أخوك).

وهي ليست بنائية تستوجبها الصيغة الصرفية لـ(زيد) ولا هي ملازمة دلالية تستوجبها دلالة المفردة (زيد) . ويبدو أن هذه الملازمة الخطابية هي التي أوجبت بنظر سيبويه وجود رابط بين المجالين عبّر عنه بقوله : " واعلم أن المبتدأ لابد له من أن يكون المبني عليه شيئاً هو هو (رابط دلالي) أو يكون في مكان أو زمان ، وهذه الثلاثة يذكر كل واحد منها بعدما يبتدأ "(٢٣) ومنه اشتراطهم وجود العائد على المبتدأ عندما يكون المبني عليه جملة .

وقد يسلك النمط الاسمي للجمل مسلك النمط الفعلي فتبدأ مجالات أخرى بالظهور وهي الحال وبعض المفاعيل وبعض المتعلقات .

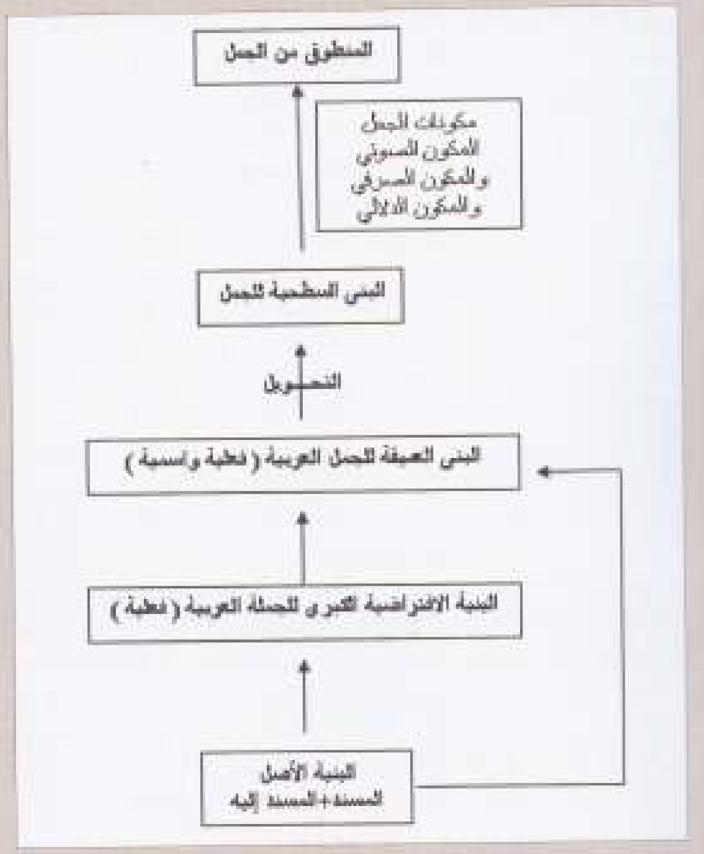

فظهور الحال يترابط بالجانب الدلالي للمسند عندما يتحول الاسم الى دلالة فعلية كما في الجملة (هذا عبدالله منطلقا) التي قرّها سيبويه بـ(فكأنك قلت : أنظر إليه منطلقاً "(٢٤).

البنى العميقة للجمل :

ادت آلية العامل المكون للجملة على نسق بعينه الى الكشف عن عدة بُنى افتراضية للجمل العربية ، ولعل أهمها ما نصطلح عليه بـ(البنية الافتراضية الكبرى للجملة العربية) وتشمل هذه البنية مجالات الوظائف النحوية كافة واليها تعود كل الجمل الفعلية وهذه البنية معتمدة على بنية بسيطة هي الأصل ممثلة بالمسند والمسند إليه واليها ترجع جميع الجمل العربية اسمية كانت أم فعلية وأقرب الصور إليها من الجمل النمط الاسمي خاصة . وتعطي هاتان البنيتان بنىً عدة تُمثل البُنى العميقة للجمل التي هي بنىً سطحية للمنطوق المنجز منها .
والمخطط الآتي يوضح ذلك ..

متى تنتهي الجملة

إن سكوت المتكلم علامة واضحة على انتهاء الجملة ومن جانب آخر فان وجود طائفة من الوظائف النحوية تعتمد في ظهورها على مقتضيات الخطاب ورغبة المتكلم فيما يريد إيصاله من معنى يجعل من مسألة إنتهاء الجملة غير خاضعة لحدود مقيدة . ومن هنا كان اللجوء أولاً - الى مسلك المتكلم بسكوته إذ هذا السكوت معيار على الانتهاء مما يراد إيصاله بالتوقف عن إنشاء المجالات . ومن المفيد الإشارة الى التصور الدلالي للجملة الذي يعطي معياراً آخر لانتهاء الجملة وهو معيار (المحتوى الدلالي للجملة) .

يقوم التصور الدلالي للجملة على أنه لابد لجملة ما ان تتركب من نمطين من المعلومات ، والمكان هما :

الأول : تمثله المعلومة أو المعلومات التواطأ عليها بين طرفي الخطاب (المتكلم والمخاطب) بمعنى أن يكونا على علم سابق بها .

الثاني : وتمثله المعلومة أو المعلومات التي يُنشأ الخطاب لأجلها ، وفيها تكمن الفائدة التي يسعى المتكلم لإيصالها الى المخاطب(٢٥) .

ومن غير الممكن الحكم على الكلام بالفائدة او الصحة عند غياب واحد من هذين النمطين علماً أن لكل من النمطين درجات متفاوتة لمعلوماته بين ما يوصف بالمهم وما يوصف بالأكثر أهمية ..

وقد قام هذا التصور الدلالي للجملة في عقول النحويين ونسجه سيبويه بقوله : " تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر "(٢٦) ولعل في استعمال مصطلح الخبر " إطلاقه على المبني على المبتدأ إشارة واضحة الى القيمة الدلالية لهذا الجزء من الجملة .

ومقولة سيبويه وإن جاءت في النمط الاسمي من الجمل الا أن الأمر يشمل النمط الفعلي أيضاً وبهذا سيكون الفعل هو الأعرف وسيكون الفاعل او أحد المفاعيل هو الخبر أي المعلومة الجديدة التي تكمن فيها الفائدة .

وعلى ما يبدو فإن استعمال سيبويه صيغة (الأعرف) وهو اسم تفضيل قد يشير الى مسألة تفاوت درجات المعرفة التي تكمن في النمط الأول من المعلومات فمن الممكن هنا أن يكون كل من الفعل والفاعل المعلومة المتواطئ عليها وقد يدخل معهما المفعول ، وبهذا سيكون الحال او بقية المفاعيل النمط الثاني في المعلومات أي المعلومات الجديدة .

وكذلك الأمر مع الجملة الاسمية فقد يكون الحال هو الفائدة ويكون كل من المبتدأ والمبني عليه معلوماً كما في : (هذا أخوك قائماً) و(زيدٌ أخوك خالصاً) ، ولهذا فإن سيبويه يطلق مصطلح الخبر في مثل هذه الجمل على الحال(٢٧) .

وتجدر الإشارة الى ان النظر الى النمطين من المعلومات يقوم من خلال العلاقات النحوية الدلالية بين المفردات لا من خلال المفردات التي تشغل المجالات لأن تلك المفردات كلها معروفة لمتكلم اللغة على حين أن الشيء المجهول لديه هو ما يحدثه المتكلم من علاقات (إسناد أو تعدية أو تعليق) بين تلك المفردات .

ومن هذه الناحية نتبيّن أن المتكلم في عملية صياغة الجملة دلالياً ، من خلال ما عدته من علاقات نحوية بين المفردات ، ومن خلال ما يعمد الى إحداثه من تحولات على بنية الجملة العميقة تظهر في البنية السطحية للجمل كالتقديم والتأخير والحذف والاستفهام والنفي وغيرها . ولعل هذا المنحى يبيّن القدرة الإبداعية للمتكلم في صياغة جملة ويفتح له المجال واسعاً للخروج بالجملة من إطارها الضيق الى الفضاء الأدبي للجملة ومن ثم للنص . مع توظيف جانب مهم من القدرة الإبداعية الاجتماعية للغة في ما يُعرف باللغة المجازية ، التي ينتقل فيها المتكلم بالكلمات الى مستوى آخر من مستويات التعبير اللغوي بإحداث تحولّ على المستوى الدلالي العام للجملة لا المستوى الدلالي للمفردات .

الجمل غير الصحيحة

يمكن وصف الجمل بأنها صور ذهنية تتمثل أولاً في ذهن المتكلم ومن ثم يعمل على نقلها الى ذهن المخاطب . وتمثل هذه الصورة انعكاساً

دلالياً لإدراك معاني المفردات وعلاقاتها بعضها ببعض . وتتباين تلك الصورة بساطة وتعقيداً على حسب مكونات الجملة . فكلما أضاف المتكلم كلمة جديدة على الركنين وضح المخاطب ما يناسبها في تلك الصورة فتزداد تفصيلاً كلما زادت كلماتها . ووضوح الصورة يعني ببساطة صحة الجملة واستقامتها، فإذا كانت الصورة مبهمة أو غير واضحة فهذا يمثل عيباً في الجملة ويمكن أن يزول هذا العيب بإضافة كلمة أو أكثر أو إجراء بعض التعديل على ترتيب مفرداتها أو غير ذلك ؛ فبعض الجمل صحيحة من الناحية النحوية لكنها غير صحيحة أو غير مفهومة من الناحية الدلالية كما في جملتي سيبويه : (سآتيك أمس وأتيتك غداً) .

لقد كان توجه النحو العربي مقتصراً نحو الجمل الصحيحة . ولم يكن يعرض للجمل الخطأ إلا لماماً من خلال ذكر شروط الوظائف النحوية . ويصح القول بأن النحويين العرب قد أهملوا هذا الجانب من النظر النحوي إهمالاً واضحاً ؛ وبهذا فإنه لم يكن يدور في خلدهم الأهمية الواضحة لهذا الجانب التي نراها اليوم. وكان سيبويه مدركاً لأهمية هذا الجانب ونص في غير ما موضع على العناية بالبحث عن وجه الخطأ النحوي وتفسير وجه الصحة وكان يعيب على معاصريه من النحويين اقتصارهم على معرفة الإعراب . ويذكر عناية أستاذه الخليل بذلك فيقول : " وإنما ذكر الخليل (رحمه الله) هذا لتعرف ما يُحال منه وما يحسنُ ؛ فإن النحويين مما يتهاونون بالخَلْف إذا عرفوا الإعراب ... "(٢٨) .

ويعني بالخَلْف كل ما هو خلف النص أو الكلام مما يساعد في فهم الجملة وإدراك معناها .

ويقول في الحث على الأخذ بهذا الجانب وعدم الاكتفاء بمعرفة الإعراب : " فإن قال : أقول : مررتُ بقائماً رجل ؛ فهذا أخبث من قِبَل أنه لا يفصل بين الجار والمجرور ، ومن ثم أسقط : ربَّ قائماً رجل ، فهذا كلام قبيح وضعيف فاعرف قبحه : فإن إعرابه يسير ، ولو استحسناه لقلنا هو بمنزلة : فيها قائماً رجلٌ ؛ ولكن معرفة قبحه أمثل من إعرابه "(٢٩) .ولقد كانت أهمية هذا الجانب واضحة عند سيبويه في أولى صفحات كتابه عندما وضع في الأبواب المختصرة التي تمثل مقدمة كتابه باباً سماه :" هذا باب الإحالة والاستقامة في الكلام "(٣٠) .

وهو إدراك لجانب مهم من جوانب الدرس النحوي لا نجده عند أي من النحويين فلا هذين المبدعين (الأستاذ وتلميذه: أعني الخليل وسيبويه (رحمهما الله)) ، ما يظهر أن النحو ليس مجرد (إعراب الكلمات ومعرفة مواقعها في الجملة فاعلاً أو مفعولاً ونحو ذلك) .

ثم القياس على سمع مما عرفناه واشتهر به النحويين العرب بل النحو إدراك لوظيفة الكلمة في الجملة وأثرها في تحديد طبيعة الكلمات التي ستظهر بعدها وطبيعة العلاقات الرابطة بينها . ويظهر ذلك من خلال الاعتماد على (السمات الدلالية والبنائية والنحوية) للمفردات وبخاصة المفردة الأولى التي تشغل موقع العامل الفعال في الجملة وهي الفعل والمبتدأ .

ولهذا تظهر الإحالة في سأذهب أمس وأتيتك غداً وفي : ذهب الشباك وتظهر الاستقامة في سأذهب غداً وأتيتك أمس .. ونحو ذلك مما ذكر في الكتاب .

إن أهمية هذا المنحى المنهجي في الكتاب تتجلى فيه مواطن الخرق للنظام النحوي والكشف عن هذه المواطن مع محاولة تصحيح النظام النحوي للجملة الذي سيتم من خلال عدة زوايا للتحليل النحوي وعدم الاكتفاء بالمظهر الشكلي للنحو وهو الإعراب ولقد أخذ المعاصرون على النحويين القدامى اقتصار اهتمامهم على هذا الجانب من النحو وكذلك جعلوا نظرية العامل محصورة في زاوية ضيقة للنظر هي الحركات الإعرابية التي هي من آثار العامل على معمولاته .

مجالات التحليل النحوي :

تعد الجملة الوحدة الأساسية التي قام عليها النحو السيبويهي وعمل سيبويه على أن ينسج أبواب كتابه في ظلها وقد خلصت بعض نتائج دراستنا لنيل الدكتوراه الى أن النظر النحوي يتمثل في مناقشة الظاهرة النحوية وأجزائها بأبعاد مختلفة تعد هذه الأبعاد مجالات للتحليل وهي خمسة مجالات : وتمثل هذه المجالات أهمية الخطوة التي خطاها الخليل وسيبويه في الدرس النحوي وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الخطوة لم تستمر في الحياة خارج الكتاب بل لقد تم إلغاؤها عندما أستُعيض عن الكتاب بصياغة جديدة قام بها النحوي المشهور أبو بكر ابن السراج بكتابه الأصول في النحو . أدت الى الإبقاء على المنهجية النحوية السائدة ونسبتها الى الكتاب الذي عبّر صاحبه بوضوح عن معارضة لها .

إن مجالات التحليل النحوي التي تفهم من خلال تحليلات سيبويه وأستاذه للتركيبات النحوية هي(٣١) :

المجال الأول : مجال الأصناف (المقولات) **Categorips** :

وهو المجال الذي يتم فيه تصنيف المفردات الرئيسة والفرعية ، والكشف عن السمات المميزة لكل صنف منها . ويمثل هذا المجال اللبنة الأولى للمنهج النحوي ؛ وبخاصة عندما نجد أن البدايات الأولى لعلم النحو تتوجه نحوه إذ يذكر أن الصحيفة التي أعطاها الإمام علي (عليه السلام) لأبي الأسود الدؤلي ضمت قوله : " الكلمات اسم وفعل وما ليس باسم ولا فعل " وأهمية هذا المجال تكمن في أنه يقدم السمات المميزة للصنف أو للمفردة التي تندرج فيه سواء أكانت هذه السمات بنائية أم دلالية .

المجال الثاني : مجال العمل **Government** :

وهو المجال الخاص بالنظر الى الربط بين الأصناف لتكوين نسق الكلام (الجملة ومجموعة الجمل) ، ويعمل على الإفادة من السمات الخاصة بكل صنف في تمثيل البنية الدلالية للجملة وإظهار الإعراب الخاصة بالمفردات .

المجال الثالث : مجال البنية **Structure**:

البنية هي النسق البنائي الذي تتخذه المفردات (الوظائف) داخل الجمل ، ويتخذ هذا النسق الهيأة العمودية ، ويتفاعل هذا المجال على نحو خاص بمجال العمل ، ومن أبرز نتائجه تقديم بنية افتراضية كبرى للجملة العربية هي الأصل للجمل في العربية .

المجال الرابع : مجال المحتوى الدلالي :

وهو مجال فهم الجملة وإدراكها ويعد تركيب ما صحيحاً إذا كان باستطاعة المخاطب إدراك محتواه الدلالي (الواقعي والمفترض) ، والمحتوى الدلالي هو معنى الجملة مقترناً بالمقام والسياق اللغوي اللذين وردت فيهما وهذا المجال يوجه البحث نحو الناحية الوظيفية (التداولية) للجملة ، مع بيان أثر كل من المتكلم والمخاطب في امتداد الجملة وانتهائها بالسكوت .

المجال الخامس : المجال القبلي (الأصل) :

تبرز هنا مسألة الأصل والفرع إذ لكل مظهر كلامي أصل سابق عليه . سواء على مستوى المفردات أم التركيبات . ويقدم البحث من خلال هذا المجال البنى الافتراضية (البنية الأصل والبنية العميقة) للجمل ،

ويعمل على إبراز التحولات التي تطرأ على البنى السطحية والمنطوق من الكلام .

الخلاصة :

توجه البحث الى عرض تصور مجمل للدرس النحوي المستقى من كتاب سيبويه ، هذا الدرس المتأثر بفكرة التحليل النحوي . ويظهر أن الخليل وسيبويه حثا الخطى نحو تجاه جديد للنحو غير ما تعارف عليه معاصروهما .

إن للنحو عند الخليل وسيبويه منهجاً تفسيرياً متأثراً بعمل المفسرين لكتاب الله العزيز ، ولهذا المنهج آليات يفسّر بها الكلام العربي بأبعاد : بنائية ودلالية ومقامية ، وتصنيفية . وتمثل هذا التفسير في مجالات خمسة للتحليل النحوي .

يعد مفهوم العامل النحوي من أبرز مفهومات هذا الدرس وآليات منهجه التفسيري وقد أسيء فهمه على مر العصور كما أسيء فهم كثير من المصطلحات والمفهومات الواردة في الكتاب .

الملاحظة الأبرز التي يشير إليها الباحث هنا تكمن في قراءة الكتاب بوصفه (مدونة مغلقة) وهو ما سيجنب الباحث محاولة إخضاع آراء سيبويه ودلالات كلماته لآراء ودلالات النحويين الخالفين . وإن القراءة يجب أن تكون للكتاب ونتائجها من الكتاب نفسه لا من خارجه .

مصادر البحث :

١- الاتجاه الوظيفي في تحليل اللغة / يحيى أحمد / عالم الفكر / مج ٢٠/ ع٣/١٩٨٩م .

٢- الإيضاح في علل النحو / أبو القاسم الزجاجي (ت٣٣٧هـ) / تحقيق د. مازن المبارك / دار النفائس / مؤسسة مطابع معتوق / بيروت / ط ٢ / ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م .

٣- تاج العروس من جواهر القاموس / السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي / مركز الكتب الثقافية / المطبعة الخيرية المنشأة بمصر / ط ١ / ١٣٠٦هـ .

٤- العين / أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥هـ) / تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي / دائرة الشؤون الثقافية / دار الحرية للطباعة / بغداد / ١٩٨٤م .

٥- الكتاب / سيبويه / أبو بشر عثمان الملقب بسيبويه (ت ١٨٠هـ) / تحقيق أ. عبدالسلام محمد هارون / عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت (د. ت) .

٦- المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه (دراسة وتحليل) / أ. د. غالب فاضل المطلبي و د. حسن عبدالغني الأسدي / مجلة المورد / دائرة الشؤون الثقافية بغداد / ع ٣ / ١٩٩٦م .

٧- مفهوم الجملة عند سيبويه / د. حسن عبدالغني الأسدي / رسالة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية قدمت لكلية التربية / الجامعة المستنصرية / ١٩٩٩م (مخطوطة) .

الهوامش :

١- العين ٧ / ٢٤٧ .

٢- الكتاب ١/٣٥٣ .

٣- يعد هذا الموضع من التحليل النحوي بحثاً في القدرة اللغوية . إذ إن سيبويه في مثل هذا الموضع يرتكز على الطبيعة القياسية للغة التي تفضي الى إرجاع جميع التركيبات النحوية الى بنية افتراضية هي الأصل .

٤- الكتاب ١ / ٣٣٢ .

٥- الإيضاح في علل النحو ٦٥-٦٦ .

٦- الكتاب ١ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٧- وضع سيبويه الأبواب السبعة الأولى من كتابه لتكون معالم عامة في المنهج النحوي وأسسه ، إذ اشتملت على ضروب من المعلومات الموجزة التي تعد الأصول التي تقوم عليها النظرية النحوية . وهي (باب علم ما الكلم من العربية وباب مجاري أواخر الكلم من العربية وباب المسند والمسند إليه وباب اللفظ للمعاني وباب ما يكون في اللفظ من الأعراض وباب الاستقامة من الكلام والإحالة وباب ما يحتمل من الشعر)، ينظر الكتاب ١/ ١٢-٢٦ .

٨- الكتاب ١/١٣ .

٩- ينظر : المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه ، دراسة وتحليل ، إعداد أ. د. غالب المطلبي و د. حسن عبدالغني الأسدي ، مجلة المورد العراقية ع ٣ / ١٩٩٩ .

١٠- العين ٢ / ١٥٤ .

١١-١٢- العين ٧/ ٢٢٨ . وينظر : تاج العروس ٢/ ٣٨٤ (سند) .

١٣- مفهوم الجملة عند سيبويه : ١١١ .

١٤-١٥- تاج العروس ٢ / ٣٨١ (سند) .

١٦- ينظر : مفهوم الجملة عند سيبويه ١١١ .

١٧- العين ٧ / ٢٢٩ .

١٨- وهو قدرة تركيب ما على إعطاء معنى تام له داخل سياق ما بالإمكان افتراضه وقد جرى النظر الى ما يعطيه سيبويه عند تحليل الجمل أو التراكيب بوصفه سياقاً (للحال أو المقام) والصحيح أنه ليس بسياق بل هو المحتوى الدلالي للجملة وسمته .

١٩- يمكن تصنيف العوامل في ضوء عملها الى ضربين أولاً : عامل فعال وهو على نوعين عامل فعال أكبر وهو (الفعل) وعامل فعال أصغر هو المبتدأ . وثانياً : عامل غير فعال وهو الحرف . ولتفصيل ينظر : المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه : ١٥ .

٢١- الكتاب ١ / ٢٣٢ . وينظر منه ١/ ٢١ و ١ / ٧٩ .

٢٢- الكتاب ١ / ٢٣ .

٢٣- الكتاب ٢ / ٧٨ . وكلام سيبويه واضح في إطلاقه مصطلح المسند إليه على الخبر في الجملة الاسمية وهو ما خالفه فيه جميع النحويين الخالفين إذ اصطلحوا به على المبتدأ لا الخبر . وقد تقدم سبق الخليل سيبويه في هذا الاصطلاح، عندما استعمل للمبتدأ (سند) وللخبر (مسند إليه) .

٢٤- الكتاب ٢/١٢٧ .

٢٥- الكتاب ٢ / ٧٨ .

٢٦- الكتاب ١ / ٤٧ .

٢٧- ينظر : الاتجاه الوظيفي في تحليل اللغة / يحيى أحمد ٧٥-٨١ عالم الفكر / مج ٢٠ / ع ٣ / ١٩٨٩ .

٢٨- الكتاب ٢/ ٨٠ .

٢٩- الكتاب ٢/١٢٤ .

٣٠- الكتاب ١/ ٢٥ .

٣١- ينظر : مفهوم الجملة عند سيبويه ٢٢٢ - ٢٢٤ .